الابعاد الفكرية والعقائدية لزيارة الأربعين

أ. م. د. وليد عبد جبر الخفاجي

كلية الآداب – جامعة واسط

الملخص

ان البحث في زيارة الأربعين كظاهرة ليست وليدة الحاضر وليست نتاج لحظات عابرة ومنعزلة عن الظروف والشروط الاجتماعية التي انتجتها، وانما هي وليدة ارهاصات تراكمت عبر واقع موضوعي امتد عمقاً في التاريخ العربي – الاسلامي وتجذرت في الذاكرة الشعبية وتداخلت فيها عوامل المكان والزمان بحيث كونت وعياً جمعياً تكوينياً امتد الى عمق الحاضر المعيشي لتظهر في شعائر وطقوس ومراسيم عبرت ومازالت تعبر عن عمق المأساة في ذاكرة المسلمين. فضلاً عن ان البنية الاجتماعية هي بنية دينية ولازالت كذلك. ومن منظور علم الاجتماع، كان التفكير الديني وما يزال الطريقة التي يفكر بها الناس في حياتهم الاجتماعية، وبخاصة في المجتمع العربي –الاسلامي الذي تأسس برؤية دينية وبقي كذلك، مع بعض الاختلافات الجزئية على مستوى الممارسة التي لا تقلل من اهمية الرؤية وفاعليتها في المجتمع.

احتلت ظاهرة الزيارة الاربعينية للإمام الحسين عليه السلام في العشرين من صفر من كل عام اهمية بارزة كشعيرة دينية تمثل رمزاً يرتبط بالرسالة الالهية لخاتم الانبياء والمرسلين النبي الاكرم ابي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وكطقس موروث باهتمام المختصين في العلوم الدينية والانسانية وخصوصاً علماء الانسان والاجتماع المعاصرين، كون الظاهرة آخذة بالاتساع المضطرد لأنها خرجت من النطاق المحلي الى النطاق العالمي، وخصوصاً بعد سقوط النظام الشمولي في العراق عام ٢٠٠٣ وانهيار مؤسساته وأدوات حكمه، برزت ظاهرة أداء الزيارة في الاربعينية بشكل لافت للنظر، أذ أخذت بالتطور واتساع نسبة المشاركة المليونية في هذه الظاهرة، أذ تتداخل الثقافات المختلفة اثناء تأدية مراسيم الزيارة تداخلاً واضحاً. أذ اتسمت الظاهرة بطابع ديني واجتماعي وسياسي واقتصادي وأيضاً ثقافي، ومن الطبيعي أن تتسع دائرة الاهتمام بدراسة هذه الظاهرة ومعرفة دوافعها والأسباب التي أدت إلى اتساعها بهذا الشكل الكبير. ودراستها بشكل يوفر جانباً من الإحاطة بتلك الدوافع والأسباب.

إن الهدف الأساسي من البحث هو دراسة الظاهرة وقراءتها من الداخل على وفق منهج تحليلي لمعرفة العوامل والأسباب التي أدت إلى تفاقمها واتساعها بعد سقوط النظام عام ٢٠٠٣، واستقصاء العلاقات

الاجتماعية وما ينجم عنها أثناء المشاركة وممارسة عملية السير لمسافات شاسعة، حيث تنتقل العادات والقيم الاجتماعية والثقافية بين المجتمعات الفرعية المشاركة، كما يمكن التعرف على التوظيف السياسي والديني للظاهرة من قبل المؤسسات والحركات والأحزاب التي تدعم هذه الظاهرة لتشكل أكبر ظاهرة سلوك جمعي في العراق على مر العصور. أذ يعتقد علماء الأناسة (الانثروبولوجيون) بأن الموروثات الشعبية (الفولكلور) هي تقليد ومحاكاة لعادات وتقاليد شعبية موروثة وراسخة في المخيال الشعبي ولا يمكن تغييرها بسهولة، حتى لو تغيرت الاجيال والنظم الاجتماعية والاقتصادية، لان من خصائصها انها تنتقل شعورياً أو لا شعورياً من جيل الى آخر. وإذا حدث فيها اي تغير وتطور وتبدل، حسب المعطيات والحاجات والمؤثرات الداخلية والخارجية، فإنها لا تفقد خصوصياتها ومعانيها ونكهتها الشعبية، أو تغير مسارها وحركتها، أو أن تستغل بقوة، كونها راسخة في المخيال الشعبي، وبخاصة إذا كانت شعائر وطقوساً مرتبطة بمشاعر دينية ووطنية واجتماعية.

The Intellectual And Ideological Dimensions Of The Arbaeen Pilgrimage

Prof. Walid Abd Jabur Al-Khafaji

Faculty of literatures / Wasit University

Abstract

The research on the Arbaeen pilgrimage as a phenomenon is not a product of the present, neither a product of transient moments isolated of the social conditions and circumstances it produced, rather a result of arithmetic accumulated through an objective reality that has deepened in Arab-Islamic history and was rooted in the popular memory as well as it overlapped with time-space factors, so it created a collective consciousness that extended to the depth of the present life to appear in rituals, ceremonies and decrees that expressed and still express the depth of the tragedy in the memory of Muslims.

From the perspective of sociology, religious thought was and still is the way people think in their social life, especially in the Arab-Islamic society that was founded with a religious vision and remained so, with few partial differences in practice that do not underrate the importance of the vision and its effectiveness in society.

The phenomenon of the Arbaeen pilgrimage of Imam Hussein "pbuh" on the 20th of Islamic month of Safar each year, has assumed prominence as a religious ritual representing a symbol associated with the divine message of the last prophet Mohammed "pbuh", and as an inherited ritual that subjected to the attention of the contemporary specialists of religious and human sciences, as this phenomenon is steadily increasing as a result of its emergence from the local scope into the global one, especially after the fall of the totalitarian regime in Iraq in 2003 and the collapse of its institutions and tools of governance, so the Arbaeen pilgrimage has emerged remarkably, and has grown and participated by increasing number of beleivers on yearly basis, not to mention how different cultures are overlapping during the practicing of its ceremonies as this phenomenon has been characterized by a religious, social, political, economic and cultural nature, so it is natural that the circle of interest to study this phenomenon and knowing its motives and the reasons that led to its expansion, to be grown in such a large format, while studying it in such way will provide some of the knowledge neccesary for those motives and reasons.

The main objective of the research is to study this phenomenon and to read it from the inside according to an analytical approach to figure out the factors and reasons that led to its aggravation and expansion after the fall of the Baath regime in 2003, and to investigate the social relations and the result they produce during the participation in the Arbaeen walk from large distances, as the social and cultural traditions are exchanging among the different communities practicing this walk, as well as the ability to use the political and religious form of the phenomenon by the institutions, movements and parties that support this phenomenon to constitute the largest phenomenon of collective behavior in Iraq throughout the ages.

Anthropologists believe that folklore is an imitation to the traditions and of popular customs rooted in folk imagination and cannot be easily changed even if generations, social and economic systems were changed, because their characteristics are transmitting sensually or unconsciously from generation to another, and if there is any change or development according to the results, needs and influences, then they do not lose their specificities and meanings or even their popular flavor, because they are firmly rooted in the popular imagination, especially if they were rituals and ceremonies linked to religious, patriotic and social feelings.

المقدمة

ان البحث في زيارة الأربعين كظاهرة ليست وليدة الحاضر وليست نتاج لحظات عابرة ومنعزلة عن الظروف والشروط الاجتماعية التي انتجتها، وانما هي وليدة إرهاصات تراكمت عبر واقع موضوعي امتد عمقاً في التاريخ العربي – الاسلامي، وتجذرت في الذاكرة الشعبية وتداخلت فيها عوامل المكان والزمان بحيث كوَّنت وعياً جمعياً تكوينياً امتد الى عمق الحاضر المعيشي لتظهر في شعائر وطقوس ومراسيم عبَّرت ومازالت تعبّر عن عمق المأساة في ذاكرة المسلمين. فضلاً عن إن البنية الاجتماعية – وما زالت كذلك – هي بنية دينية. ومن منظور علم الاجتماع، كان التفكير الديني وما يزال الطريقة التي يفكر بها الناس في حياتهم الاجتماعية، وبخاصة في المجتمع العربي –الاسلامي الذي تأسس برؤية دينية وبقي كذلك، مع بعض الاختلافات الجزئية على مستوى الممارسة التي لا تقلل من اهمية الرؤية وفاعليتها في المجتمع [1].

احتلت ظاهرة زيارة الأربعين للإمام الحسين عليه السلام في العشرين من صفر من كل عام أهمية بارزة كشعيرة دينية تمثل رمزاً يرتبط بالرسالة الإلهية لخاتم الأنبياء والمرسلين النبي الاكرم أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكطقس موروث باهتمام المختصين في العلوم الدينية والانسانية وخصوصاً علماء الانسان والاجتماع المعاصرين، كون الظاهرة آخذة بالاتساع المضطرد لأنها خرجت من النطاق المحلي الى النطاق العالمي، وخصوصاً بعد سقوط النظام الشمولي في العراق عام ٢٠٠٣ وانهيار مؤسساته وأدوات حكمه.

برزت ظاهرة أداء الزيارة في الأربعينية بشكل لافت للنظر، إذ أخذت بالتطور، واتساع نسبة المشاركة المليونية في هذه الظاهرة، إذ تتداخل الثقافات المختلفة أثناء تأدية مراسيم الزيارة تداخلاً واضحاً، إذ اتسمت الظاهرة بطابع ديني واجتماعي وسياسي واقتصادي وثقافي، ومن الطبيعي أن تتسع دائرة الاهتمام بدراسة هذه الظاهرة ومعرفة دوافعها والأسباب التي أدت إلى اتساعها بهذا الشكل الكبير، ودراستها بشكل يوفر جانباً من الإحاطة بتلك الدوافع والأسباب.

إن الهدف الأساسي من البحث هو دراسة الظاهرة وقراءتها من الداخل وفق منهج تحليلي لمعرفة العوامل والأسباب التي أدت إلى تفاقمها واتساعها بعد سقوط النظام عام ٢٠٠٣، واستقصاء العلاقات الاجتماعية وما ينجم عنها أثناء المشاركة وممارسة عملية السير لمسافات شاسعة، حيث تنتقل العادات والقيم الاجتماعية والثقافية بين المجتمعات الفرعية المشاركة، كما يمكن التعرف على التوظيف السياسي والديني للظاهرة من قبل المؤسسات والحركات والأحزاب التي تدعم هذه الظاهرة لتشكل أكبر ظاهرة سلوك جمعي في العراق على مر العصور، إذ يعتقد علماء الأناسة (الانثروبولوجيون) بأن الموروثات الشعبية (الفولكلور) هي تقليد ومحاكاة لعادات وتقاليد شعبية موروثة وراسخة في المخيال الشعبي ولا يمكن تغييرها بسهولة، حتى لو تغيرت الاجيال والنظم الاجتماعية والاقتصادية، لأن من خصائصها انها تنتقل شعورياً أو لا شعورياً من جيل الى آخر، وإذا حدث فيها اي تغير وتطور وتبدل

حسب المعطيات والحاجات والمؤثرات الداخلية والخارجية فإنها لا تفقد خصوصياتها ومعانيها ونكهتها الشعبية أو تغير مسارها وحركتها أو أن تستغل بقوة، كونها راسخة في المخيال الشعبي، وبخاصة إذا كانت شعائر وطقوساً مرتبطة بمشاعر دينية ووطنية واجتماعية[٢].

وتعد مراسيم زيارة الأربعين من أهم الموروثات الشعبية في العراق كونها تلعب دوراً فعالاً في المعتقدات الروحية، إذ تخلق أجواءً دينية وثقافية يمكن تسخيرها اجتماعياً وسياسياً، وبهذا الأداء تمتاز من كونها ظاهرة ذات طابع الديني الشعائري إلى كونها ظاهرة اجتماعية – سياسية – طقوسية لها خصوصية على المستوى المحلي والعالمي، وقد ارتبط أفراد المجتمع العراقي ارتباطاً روحياً بمأساة كربلاء إذ أضحى الحزن والعزاء أحد سمات الشخصية العراقية وخصوصاً لأبناء الوسط والجنوب.

وقد عرض الامام الحسين عليه السلام استراتيجية أعظم ثورة ونهضة مصيرية، في خروجه العظيم من المدينة الى كربلاء واستشهاده، وانعكست على حياة الامام السجاد عليه السلام التي كانت مليئة بالمقاومة واقتطاف ثمار ثورة عظيمة وحماسة صنعها الامام الحسين عليه السلام وضحى من أجلها وتحدى فيها طاغية زمانه الذي كانت نشوة انتصاره ظاهرية، وكان يتمادى في حالات الاستبداد والقهر التي اصطنعها ضد مخالفيه[٣].

والتحليل السوسيولوجي يؤكد لنا استمرار واتساع ظاهرة زيارة الأربعين كونها تعد شكلاً من أشكال الرفض والاحتجاج ضد الرؤية الايديولوجية الدينية الحاكمة على مر العصور التي ترسخت في الواقع الاجتماعي الذي يُعدُّ أصل تكوينها، إذ تحولت الى صرخة حق ألجمها السلطان الجائر. وهذا يشكل أحد الأسباب التي أدت الى اتساع نطاق زيارة الأربعين.

الإطار المنهجي: ويتضمن الآتي:

مشكلة البحث

تملك المجتمعات على اختلاف أديانها ومذاهبها معتقدات وأساليب للحياة تتميز بها عن غيرها وتشكل هويتها، ويعتبر الدين المنبع الأساس الذي تستمد منه المجتمعات هذه المعتقدات وهي تحاكي الواقع الثقافي والاجتماعي، وتعد الأساس الذي يحدد من خلاله ما هو مقبول ومرفوض في السلوك الإنساني.

ومن خصائص هذه المعتقدات أنها تمزج الواقع بالخيال فتكون تمثيلاً للفلكلور بكل مكوناته من أساطير وخرافات وحكايات شعبية قد لا يعرف المجتمع منشأها وقد لا تمت للدين بصلة لكنه يتمسك بها ويؤسس من خلالها طقوساً مستوحاة من التراث القديم ويشكل بذلك نسقاً خاصاً للتدين والثقافة الشعبية ينتقل بصورةٍ شفاهيةٍ بواسطة كبار السن الذين يتركون أثراً في ترسيخ وتقوية الممارسة الفعلية لهذه المعتقدات، ونظراً لأهميتها وارتباطها بالواقع الثقافي والاجتماعي والديني للإنسان، سعى البحث فيها والكشف عن الاسباب التي تدعو الى إعادة إنتاجها عبر مراحل زمنية مختلفة.

إن تراكم هذه الخبرات الإنسانية يُظهر خصائص وأصالة المجتمع الذي يتبناها وإن تمسك الأفراد بها يثبت مدى تجذرها بالسلوك ويظهر خواص روحية وثقافية مكونة نسقاً غيبياً معنوياً وقد أحاطها المجتمع بهالة من القداسة ليدعمها ويعزز قوتها.

يتناول هذا البحث ظاهرة زيارة الأربعين للإمام الحسين عليه السلام عند الشيعة من خلال تحليل جزيئاتها بكل أبعادها الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية والرجوع بالظاهرة إلى جذورها التاريخية والمراحل التي مرت بها وعلاقتها بالعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وعليه تكمن مشكلة البحث بعدة تساؤلات يسعى الباحث الإجابة عنها هي كالآتي:

ماهي الأسباب الموجبة للمسلمين لإحياء ذكرى عاشوراء منذ قرون ولحد الوقت الحاضر؟

ماهي الاسباب التي أدت الى اتساع حجم الظاهرة وخصوصاً بعد سقوط النظام الشمولي عام ٢٠٠٣ مقارنة بالحقب السابقة؟

ما هي الدوافع التي تدعو ملايين الناس لتحمل عناء السفر والسير لمسافات شاسعة لأداء مناسك هذه الشعيرة؟

هل ساعدت قوة التأصيل الفقهي الديني للظاهرة ورمزيتها في ترسيخها كظاهرة غلبت تأثير الموروثات الشعبية من قيم وعادات وتقاليد؟

هل للظاهرة أبعادٌ فكرية وعقائدية وتاريخية وانعكاسات اقتصادية على الواقع الاجتماعي؟

أهداف البحث:

إن كل دراسة أو بحث علمي يسعى الى تحقيق هدفٍ أو مجموعة من الأهداف وهذا ما يجعلها إضافة علمية في ميدان التخصص، والبحث الحالي حدد أهدافه بالآتي:

١. تسليط الضوء على أبعاد الظاهرة الفكرية والعقائدية والتاريخية وانعكاساتها على الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي.
٢. بيان أسباب اتساع حجم الظاهرة وخصوصاً بعد سقوط النظام الشمولي عام ٢٠٠٣ مقارنة بالحقب التي سبقتها.
٣. توضيح قوة التأصيل الفقهي الديني للظاهرة ورمزيتها كظاهرة ساهمت في ترسيخها بشكل غلب تأثير الموروثات الشعبية من قيم وعادات وتقاليد.
٤. التوصل الى وضع مقترحات تساهم في تعضيد مراسيم الظاهرة المدروسة.

منهجية البحث

نظام من القواعد الصريحة الواضحة والإجراءات التي يُبنى عليها البحث، يراد بالمنهجية العلمية وتقوّم ادعاءات المعرفة بناءً عليها. كما يُعّرف الإطار المنهجي بأنه طريقة من طرائق البحث تتألف من مراحل عدة، يسير البحث العلمي المنتظم بحسبها عند بحثه أي مشكلة أو مسألة أو فرضية، واستخدم الباحث عدة مناهج علمية للإحاطة بمشكلة البحث وهي كالآتي:

أولاً: المنهج التاريخي:

وهو من المناهج المهمة المستخدمة بكثرة في الابحاث الاجتماعية، والباحث الذي يستخدم هذا المنهج ينطلق من المبدأ الذي ينص على ان لكل ظاهرة اجتماعية تاريخها فهي ليست وليدة اليوم بل لها تاريخ موغل في القدم[٤]. لذا يعتقد علماء التاريخ مثل ابن خلدون وكارل ماركس وتوينبي وهيجل بأننا لا نستطيع ان نفهم الحاضر دون دراسة الماضي، وفهم الماضي والحاضر يساعدنا على تنبؤ المستقبل[٥]، وبالتالي اشتقاق قوانين عامة تفسر مسيرة الظاهرة المدروسة[٦].

إنّ دراسة أيّ ظاهرة اجتماعية تستدعي مراجعة تاريخها لتحديد عوامل تطورها أو تغيرها وابتعاد الباحث عن السرد التاريخي، واعتماد الطريقة التحليلية وفق خياله السوسيولوجي وفهم المنظور الكلي للصورة التاريخية للفرد والمجتمع على ضوء ما تنطوي عليه من دلالات تاريخية.

يعتمد المنهج التاريخي على تتبع الحوادث التاريخية وسير تسلسلها ودراستها، أي جمع المعلومات والحقائق من خلال الوثائق والسجلات والمصادر التاريخية المتاحة لتتبع الدراسة موضوع البحث.

والمنهج التاريخي يوصف ويعرف بأنه الطريقة التي تساعد على تفسير الظواهر الاجتماعية بالرجوع الى خلفياتها التاريخية لتتبع نشأتها وتطورها التاريخي[٧].

ثانياً: المنهج الوصفي التحليلي:

إن الاسلوب الوصفي الاثنوجرافي يعرف بانه تلك الصيغة البحثية التي تستهدف الوصف الكمي او الكيفي لظاهرة اجتماعية، او مجموعة من الظواهر المترابطة، من خلال استخدام الادوات المعرفية لجمع البيانات[٨]. ويعتبر بعض العلماء إن المنهج الوصفي يجب ان يكون قاصراً او مختصاً ببحث الظواهر في الوقت الحاضر[٩]، وان الباحث من خلال استخدامه المنهج يسجل ويصف مظاهر السلوك ذات الدلالة الثقافية في مجتمع الدراسة، وإن هذا يتطلب قضاء فتره طويلة في الدراسة العميقة كما يتطلب الاقامة في المجتمع المدروس ومعرفة لغته[١٠].

تتميز الدراسة الوصفية بانها تستطيع ان تغني المعلومات والبيانات المتوفرة عن موقف اجتماعي، او ظاهرة اجتماعية بحيث توفر الظرف العلمي الملائم لدراسة أكثر عمقاً، وتتميز بشموليتها، واتساع إطارها وتركيزها على جمع الملومات الممكنة حول موقف معين وفق إطار محدد، وهذا يعني إنه يستطيع أن يفرز مشكلات جديدة للبحث وأن ينمّي الأُطر النظرية والمفاهيم القائمة.

ثالثاً: المنهج المقارن:

يستعمل هذا المنهج في دراسة المقارنة بين المجتمعات المتباينة أو الجماعات المختلفة التي تعيش في مجتمع واحد لتوضيح أسباب الشبه والاختلاف بين المجتمعات والجماعات وأول من استعمل هذا المنهج علماء اللغة في القرن الثامن عشر عندما قاموا بدراسة عدة لغات بغية المقارنة بينها والتوصل إلى الصفات المشتركة التي تربطها والتي تشير إلى اشتقاقها من أصل لغوي واحد، واستعمل هذا الاصطلاح خلال القرن التاسع عشر لتوضيح

الطريقة التي تستطيع استخراج أوجه الشبه بين المؤسسات الاجتماعية لاقتفاء جذورها المشتركة[١١].

كما إن هذا المنهج يقارن ويحدد ويميز الضروري من غيره واكتشاف العوامل الكامنة والضرورية لإحداثها[١٢]. ويستخدم هذا المنهج في مقارنة الظاهرة الاجتماعية في المجتمع نفسه ولكن عبر مراحل زمنية مختلفة[١٣].

نبذة تاريخية:

ان تجديد العزاء الحسيني في كل زمان ومكان لا يمثل إعادة الماضي وتكرار الخلاف، وانما هو في حقيقته تجسيد للصراع بين الحق والباطل الذي ما زال قائماً، وعلينا اتخاذ موقف ثابت وواضح منه. ولولا مصداقية الثورة الحسينية وشرعيتها لما بقيت في الذاكرة وأضحت رمزاً لصدق المبدأ والعقيدة، ومثلاً للتضحية والفداء من أجل المبدأ، وليست بداية الاحزان والعزاء.

إذ يعود تاريخ العزاء في بلاد ما بين النهرين إلى العصور القديمة التي سبقت واقعة كربلاء إذ كانت طقوس الموت والحزن والبكاء معروفة في المجتمعات والأديان الشرقية، ولا سيما في بلاد ما بين النهرين، إذ إنَ تراتيل البابليين ومناحاتهم على خرائب سومر وأكد وكذلك مناحات عشتار على فقيدها إله الربيع المقتول تموز في سومر القديمة، تذكرنا بنواح زينب على أخيها الحسين وليلى على ولدها علي الأكبر عليه السلام في كربلاء[١٤].

وليس غريباً أن تنتقل طقوس البكاء بين الأجيال لتجعل من الشخصية العراقية ميالة للعزاء والنواح، فهذه الطقوس لها جذور تاريخية في العراق قبل واقعة عاشوراء واستشهاد الإمام الحسين.

إن ثقافة البكاء مرتبطة بالإنسان العراقي منذ القدم، وإنَ واقعة كربلاء شكلت عودة هذا الفرد إلى طقوسه التي اعتاد عليها في العصور البابلية التي كان الحزن والبكاء يشكلان طابعها الجوهري، وهذا ما يؤكده ايردمنس «في المقارنة التي أجراها بين طقوس الموت والبكاء على الإله تموز» (ادونيس) التي كانت تقام سنوياً في سومر وبابل وبين طقوس العزاء على الحسين عليه السلام كل عام في أغلب المدن العراقية. إنَ الاحتفالات التي كانت تجري في شارع الموكب في بابل من أجل تموز تلقي – بحسب «ايردمنس ضوءاً– يساعد على مقارنتها بما كان يجري أيام عاشوراء من بكاء ونواح وتراتيل حزينة، وقد أكد «ايردمنس» أن هذه الطقوس هي استمرار لطقوس الربيع التي كانت تقام من أجل الإله تموز، وأنّها استمرت في حران والموصل حتى القرن الحادي عشر وكذلك الثالث عشر الميلاديين في شمال العراق بشكل بسيط ومحوَّر[١٥]. كانت الاحتفالات بذكرى معركة كربلاء قد انطلقت منذ قرون طويلة ومرت بمراحل التطور والبلورة حتى بلغت شكلها النهائي، وعلى الرغم من صعوبة التدقيق في معرفة الحقبة التاريخية التي شهدت نشوءها، إلا انه من الممكن اقتفاء آثار بعض الشعائر من خلال الوقوف على الحقبة التاريخية للحدث التأسيسي لاستشهاد الإمام الحسين، في حين يعود نشوء صور العزاء بشكلها الحالي إلى حقب تاريخية مختلفة.

تُعَدُّ المآتم الحسينية اليوم من أكبر الشعائر الدينية في العالم، منذ تأسيس الأئمة للمآتم الحسيني بوصفه شعيرة دينية، وذلك عبر توفير الأرضية المناسبة لسن المآتم من الإمام زين العابدين وبناء أركان المآتم في عهد الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، واتساع دائرة العزاء في عهد الإمامين الكاظم والرضا عليهما السلام، وبناء على التقاليد المتبعة في المجتمعات البشرية تقيم أسرة القتيل المآتم عليه، ولم يكن أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام استثناء من ذلك، بل اتسعت دائرة مآتم الإمام الحسين عليه السلام لما له من صلة بالنبي صلى الله عليه وآله ومكانة اجتماعية، حتى أقام له الناس ولا سيما الصحابة والتابعين المآتم، وسُمّيَ عام استشهاده عام الحزن[١٦].

يروى أنَ أول مآتم للعزاء على الإمام الحسين بعد استشهاده ونخبة من أهل بيته وأصحابه في واقعة كربلاء كان في ساحة القتال عند غروب شمس العاشر من محرم بعدما وجدوا الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه مضرجين بدمائهم، ثم أقيم المأتم الثاني في الشام عند وصول الأسرى من أهل بيت الإمام عليه السلام إلى مجلس يزيد إلى بيته[١٧] وبعد عودة السبايا من الشام إلى المدينة برفقة الإمام علي بن الحسين عليه السلام أقامت عائلة الإمام الحسين مأتماً آخر.

عن بشير بن حذلم، قال: لما قربنا من المدينة نزل علي بن الحسين فحطّ رحله وضرب فسطاطه، وانزل نساءه وقال يا بشر رحم الله أباك، لقد كان شاعراً فهل تقدر على شيء منه «يعني الشعر»؟ قلتُ: بلى يا ابن رسول الله إني شاعر قال: ادخل المدينة وانعَ أبا عبد الله الحسين قال بشر: فركبت فرسي وركضت حتى دخلت المدينة فلما بلغت مسجد النبي رفعت صوتي بالبكاء وأنشأتُ:

يـا أهـل يـثـرب لا مـقـام لـكـم بها
قُـتِـلَ الحـسـين فـأدمـعـي مـدرارُ
الجـسـم مـنـه بـكـربـلاء مـضرج
والـرأس منه على القناة يُـدارُ[١٨]

وهكذا بدأت مآتم العزاء تقام حزناً على الإمام الحسين عليه السلام من قبل بني هاشم وام سلمة وام البنين زوجة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وبكاء آل عبد المطلب وحداد أهل البيت وبكاء التوابين ونواحهم على قبر الحسين في طريقهم إلى قتال أهل الشام، وغير ذلك من مراسم للعزاء[١٩]. وكان أول من سنّ البكاء والعزاء شعيرةً دينية هو الإمام علي السجاد عليه السلام الذي سكن المدينة بعد استشهاد أبيه الحسين، وانتهز جميع الفرص لإحياء ذكرى واقعة كربلاء، فكان يبكي آلماً إذا أراد شرب الماء، وكان بكاؤه على مرأى الناس ومسمعهم، حتى طلبوا منه الكف عن البكاء خوفاً على صحته، كما كان يدعو الآخرين للبكاء على الحسين، وعدّ ذلك سبيلاً لدخول الجنة ونيل الأمان من الله سبحانه، وحين بدأت إمامة الإمام الباقر عليه السلام كان قد مر على واقعة كربلاء ثلاثة عقود، وظهر في الساحة جيل جديد لم يذكر شيئاً عن واقعة كربلاء، كما حدثت ثورات ووقائع أخرى في هذه العقود، مثل ثورة التوابين، وثورة الزبير، وثورة المختار، إلا أنَ تلك الحوادث المؤلمة ومقتل قتلة الحسين على يد المختار، لم تؤدِ إلى تركِ الإمام الباقر عليه السلام واقعة كربلاء يطويها النسيان، بل كأبيه، انتهز كل فرصة لإحياء ذكرى سيد الشهداء وواقعة كربلاء، ويعني ذلك انه سعى لسن المأتم الحسيني شعيرة دينية[٢٠]. إذ يعتقد

«باستروف» بأن طقوس العبادة وزيارة الاضرحة المقدسة والتراتيل الدينية الحزينة، التي كان الكهان يقومون بها في بابل القديمة، تشبه الى حد بعيد ما يجري في احتفالات عاشوراء التي تقوم أساساً على نفس فكرة الشفاعة والانقاذ[٢١]. ثم توالت مجالس العزاء التي كان يقيمها الأئمة من ولد الحسين على مر العصور، إذ كانوا يعطون الهدايا ويهبون الهبات للشعراء لكي يرثوا جدهم الإمام الحسين، ويوجد كثيرٌ من الأحاديث والروايات الواردة عنهم باستحباب البكاء على الحسين وأهل بيته مقابل ضمانات بالثواب والأجر، لا مجال لذكرها جميعها هنا، تلافياً لإطالة البحث، لكن العزاء بوصفه طقساً أخذ شكله وطابعه التراجيدي في الاحتفالات الشعائرية الرمزية في القرن السابع الميلادي بعد قيام «التوابين» بأول حركة مقاومة ضد الحكم الأموي للأخذ «بثارات الحسين» بعد أن شعر أهل الكوفة بالندم المرير لمقتل سبط رسول الله وعلي وفاطمة الزهراء، تلك الحركة التي كوّنت -على أغلب الاحتمالات - أول نواة للاحتفال بذكرى استشهاد الحسين يوم عاشوراء، إذ كان بعض المناصرين لأهل البيت يذهبون إلى كربلاء للتجمع حول قبر الحسين لإظهار الندم وطلب المغفرة لتقاعسهم عن نصرته في واقعة كربلاء[٢٢]. وهناك مصادر تاريخية تؤكد أنَ المختار بن يوسف الثقفي الذي قاد حركة «التوابين» ورفع شعار «يا لثارات الحسين» كان أول من أقام احتفالاً تأبينياً في داره في الكوفة بمناسبة يوم عاشوراء وانه أرسل بعض النادبات إلى شوارع الكوفة للندب على الحسين[٢٣]، ولعل الصراعات الدامية التي وقعت بين التنظيمات الشيعية الثورية من جهة، والحكم الأموي والعباسي من جهة اخرى، ساهمت ببلورة ونشأة شعيرة العزاء، إذ أخذ الشيعة بقيادة زمرة التوابين في السنوات الأولى لاستشهاد الحسين مواجهة السلطة وتحديها، كذلك بدأت حملة الزيارة إلى قبر الحسين في كربلاء رداً على حملات الاضطهاد التي شنتها تلك السلطات، وقد تحولت كربلاء منذ ذلك الحين إلى مزار[٢٤] يأتيه عدد كبير من المسلمين الشيعة، وهكذا أخذ العزاء يترسخ في المجتمع الشيعي عاماً بعد آخر ماراً بانعطافات مهمة تراوحت بين المنع والسماح به، إذ سَجّلت العديد من السنوات منعاً لإقامة العزاء وكانت أول مسيرة عزاء بعد هذا الانتعاش هو موكب الشيخ محمد باقر أسد الله (المتوفى عام ١٨٤٠ م) في الكاظمية، أما في كربلاء فقد كان آية الله الشيخ محمد جواد البلاغي (توفي عام ١٨٤٦م) أول من أقام المواكب الحسينية يوم عاشوراء وعنه أخذت حتى توسعت ووصلت إلى ما هي عليه اليوم[٢٥].

أما بعد انهيار الحكم العثماني في العراق عام ١٩١٧م فقد اتبع الحكام الجدد (حقبة الحكم الملكي) سياسة التحبيب والترغيب، إذ أخذوا برعاية المواكب الحسينية بصورة خاصة، إلى الحد الذي أغلقت الحكومة الانكليزية ملهى ليلياً يقع بالقرب من مرور المواكب الحسينية احتراماً لحرمة عاشوراء، كما حضر الملك فيصل الأول بنفسه مجلس عزاء أُقيم باسمه أكثر من مرة. لكن سياسة الحكم الملكي لم تستمر طويلاً إذ سرعان ما انتبهت إلى خطورة بعض الشعائر الدينية، فأقدمت على اتخاذ إجراءات احتياطية بشأنها، ففي

عام ١٩٢٨ منعت الحكومة إقامة المواكب الحسينية، غير أنها رفعت المنع في العام التوالي، ورجعت إلى ما أقدمت عليه عام ١٩٣٢، فمنعت مواكب الكاظمية من أداء مراسيمها خلال عشرة محرم، غير أن نهاية الستينيات وبداية السبعينيات مثلت نقطة تحول مهمة في تاريخ مراسيم العزاء الحسيني حيث أخذت الاحتفالات بالتطور والازدهار والانتشار بشكل واسع ولافت للنظر، لا سيما عام ١٩٦٨ إذ أظهرت الحكومة العراقية تسامحاً مع مراسيم العزاء الحسيني. وفي بداية السبعينيات وصلت الاحتفالات في شهري محرم وصفر إلى ذروتها، حتى أخذت طابعاً شعبياً تسبب في إثارة حفيظة الحكومة ودفعها لاتخاذ إجراءات عدة حاولت من خلالها الالتفاف حول المواكب الحسينية للضغط على القائمين بها وتقييد حركتها ومراقبتها، بل استغلالها. ومع بداية الحرب العراقية الإيرانية عام ١٩٨٠، بدأ تاريخ انحسار العزاء الحسيني، إذ تم منع جميع أنواع مراسيم العزاء وفي جميع أنحاء العراق[٢٦].

الأبعاد الفكرية والعقائدية لزيارة الأربعين

ترتبط الأبعاد الفكرية والعقائدية ارتباطاً وثيقاً بمراجعة شرعية العزاء الحسيني وتُعزى إلى أمرين، الأول منهما هو التأسي بالأئمة من ولد الحسين عليه السلام بعد واقعة الطف، والأمر الثاني هو موقف الفقهاء الشيعة من الظاهرة وتقديمهم النصوص الفقهية التي تؤصل لهذه الظاهرة شرعياً واجتماعياً، حتى عدَّها العوام من الناس من الواجبات الفقهية، وتكمن في أمرين: الأول التأصيل الروائي، إذ لا يخفى أنَ هناك كماً هائلاً من الروايات الواردة عن أئمة الشيعة في ثواب العزاء والنواح وممارسة بقية الشعائر الحسينية المتعلقة بواقعة كربلاء، وبحسب تلك الروايات فإنَ النبي صلى الله عليه وآله قد أوصى في روايات عديدة بإقامة المآتم على الإمام الحسين والبكاء عليه، وعُدَّ هذا الأمر من أهم العبادات، وموجباً للتقرب إلى الله عز وجل. ويمكننا ملاحظة ذلك بوضوح من خلال مراجعة الروايات المنقولة عن الأئمة وفقهاء الدين مثل الروايات الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام، والإمام الرضا عليه السلام، وكلمة الإمام السجاد عليه السلام قبل دخول المدينة، وزيارة الناحية المقدسة لصاحب الزمان عجل الله فرجه. يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام في رواية منقولة عنه: «كل الجزع والبكاء مكروه، سوى الجزع والبكاء على الحسين»، ويقول الإمام علي الرضا عليه السلام: «ان يوم الحسين أقرح جفوننا وأسبل دموعنا وأذلَّ عزيزنا بأرض كرب وبلاء»[٢٧]. كما رويّ عن الإمام الصادق قال: وانه – يعني الإمام الحسين – لينظر إلى من يبكيه فيستغفر له ويسأل أباه الاستغفار له ويقول أيها الباكي لو علمت ما أعدّ الله لك لفرحت أكثر مما حزنت وانه ليستغفر له من كل ذنب وخطيئة[٢٨]. والثاني هو التأصيل الفقهي، إذ لم يُشبَع أمرٌ مستحبٌ في الشريعة الإسلامية بفتاوى الفقهاء، كما أُشبِعَ العزاءُ على الإمام الحسين عليه السلام، فقد كُتبت البحوث والدراسات والفتاوى من أجل استمرار هذه الشعيرة الإسلامية التي يرى الشيعة أنها من الأمور المهمة التي تودي إلى استمرار الدين وديمومته ومواجهة الظلم والباطل. يقول الشيخ المفيد أحد كبار علماء

الشيعة وله دور كبير في تدوين المعتقدات الشيعية عن عاشوراء وضرورة إقامة العزاء فيها: يتجدد في هذا اليوم حزن أهل البيت وشيعتهم، وعلى الشيعة الامتناع عن الملذات فيه، كما أوصى بذلك أئمتهم، وأن يقيموا المآتم، ويأكلوا كما يأكل أهل العزاء[٢٩].

إنَ هناك جملة من الفتاوى الشرعية التي تؤصل لهذا الطقس، وارتأى الباحث اختيار بعضاً منها شواهدَ لتدعيم فكرة الاشتغال الفقهي لتأصيل العزاء بوصفهِ شعيرة دينية، لتقديم دراسة مختصرة عن دلالاتها وتوظيفها لهذه الشعيرة، ومن أهم هذه الفتاوى: هي الفتوى الشهيرة لآية الله العظمى الشيخ ميرزا حسين النائيني إلى أهالي البصرة وهو يحرضهم على العزاء، اذ يعتمد كثيرٌ من فقهاء الشيعة على هذه الفتوى التي يؤسسون عليها أحكامهم الشرعية في جواز العزاء ويعدونها منطلقاً مهماً لفتاواهم، نورد بعضاً مما جاء فيها من دلالات تؤكد على استحباب العزاء[٣٠]: «خروج المواكب العزائية في عشرة عاشوراء ونحوها إلى الطرق والشوارع مما لا شبهة في جوازه ورجحانه وكونه أظهر مصاديق ما يقام به عزاء المظلوم وأيسر الوسائل لتبليغ الدعوة الحسينية إلى كل قريب وبعيد، لكن اللازم تنزيه هذا الشعار العظيم عما لا يليق بعبادة مثله من غناء او استعمال آلات اللهو والتدافع في التقدم والتأخر بين أهل محلتين ولو اتفق شيء من ذلك فذلك الحرام الواقع في البين هو المحرم ولا تسري حرمته إلى الموكب العزائي ويكون كالنظر إلى الأجنبية حال الصلاة في عدم بطلانها»[٣١].

تعد هذه الفتوى مفتاحاً شرعياً من الميرزا النائيني للعزاء بوصفه أظهر المصاديق لتبليغ الدعوة، وبالرغم من توقعه بسريان بعض الأخطاء وتسربها إلى ظاهرة العزاء إلا أنَ ذلك لا يمنع الجواز، بل يبرر المفتي الشيعي ذلك، إذ يعد العزاء أكبر وأهم من كل الأخطاء التي ترتكب بظله، وفي هذا الكلام دلالة واضحة على أهمية العزاء عند الفقهاء الشيعة.

وينتقل الميرزا النائيني إلى نقطة أخرى من الفتوى إذ يقول: «لا إشكال في جواز اللطم بالأيدي على الخدود والصدور حدّ الإحمرار والإسوداد بل يقوى جواز الضرب بالسلاسل أيضاً على الأكتاف والظهور إلى الحد المذكور، بل وإن أدى كل من اللطم والضرب إلى خروج دم يسير على الأقوى»[٣٢].

هكذا يأخذ العزاء تفاصيله عند الميرزا النائيني حدّ الإدماء ويقع هذا الرأي الفقهي ضمن الآراء التي يعدها البعض متطرفة وسنأتي على ذكرها في بحث لاحقٍ، وتقابلها آراء أخرى أقلّ اندفاعاً ودعوة إلى الإدماء، وإذ كان الخطاب الفقهي الشيعي بهذا الشكل من الدعوة إلى إقامة العزاء فإنَ استمرار هذه الظاهرة سيكون متواصلاً ينبع من هذه الفتاوى، ويتأكد ذلك المعنى حينما ننتقل إلى فتوى أخرى في السياق نفسه، إذ يَعدُّ علماء الشيعة أنَ فتوى النائيني سندٌ فقهيٌ لهم لذلك توالت توقيعاتهم الفقهية على هذا النص الفتوائي، يقول الميرزا الشيرازي ما نصه «ما ذكره الميرزا النائيني في هذه الورقة – إشارة إلى فتواه – صحيح إن شاء الله تعالى»[٣٣].

ويؤكد أكثر من هذا المعنى المرجع السيد محمود الشاهرودي إذ يقول في فتواه: «ما حرره شيخنا العلامة – أي النائيني – في هذه الصحيفة، هو الحق المحقق عندنا» [٣٤].

ويمكن سرد أسماء الفقهاء الشيعة الذي أمضوا هذه الفتوى تجنباً للتكرار اذ تشترك فتاواهم جميعها فيما ذهب إليه المحقق النائيني وهم:

السيد حسين الموسوي الحمامي والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء المظفر الشيخ محمد حسن والشيخ محمد كاظم الشيرازي والسيد جمال الدين الكلبايكاني وغيرهم من فقهاء الشيعة.

إنَ ذكرنا لهذا التسلسل من المراجع الشيعة هو لتأكيد التأصيل الفقهي للعزاء، فهذه الظاهرة ليست فقيرة فقهياً وإنما تستند إلى عشرات الفتاوى الفقهية التي تمنحها الشرعية وتجعلها قابلة للبقاء والتواصل، إذ لم يكن النص الفقهي السابق للشيخ النائيني وما تبعه من آراء فقهية لمراجع الشيعة وحيداً في هذا المجال بل هنالك العديد من النصوص التي شرعنت العزاء وأصّلَت بقاءه، منها ما كتبه المصلح العلاّمة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في كتابه «الآيات البينات» إذ يقول: «الجزع والبكاء في المصائب مهما عظمت قبيح مكروه كشق الجيوب على الفقيد، وخمش الوجوه محرَّمٌ في الأشهر ولكن صادق أهل البيت (أي الإمام جعفر الصادق) في حديث وثيق يقول «على مثل الحسين فلتشق الجيوب[٣٥]، ولتخمش الوجوه ولتلطم الخدود» ويستند أغلب هؤلاء الفقهاء إلى سير وأحاديث واردة عن أئمة أهل البيت بتحبيذ هذا النوع من الشعائر والطقوس، إذ يروي الشيخ كاشف الغطاء وهو من أكبر علماء الشيعة في النجف «أن الإمام الحجة الغائب يقول في زيارة الناحية: فلأندبّنك صباحاً ومساء ولأبكينّك بدل الدموع دما، وقد سبقه إلى ذلك جدُّه الامام زين العابدين عليه السلام ففي بعض روايات العلاّمة المجلسي على ما يعلق ببالي من زمن متقادم (والكلام للشيخ كاشف الغطاء)، أنَّ زين العابدين كان أحياناً إذا قُدم اليه قدح فيه ماء بكى حتى يملأه دما وعلى هذه الوتيرة فاسحب وجر سائر الأعمال التي يؤتى بها بقصد الحزن والتوجع لفاجعة الطف»[٣٦].

وتستمر شرعيّة هذه الشعائر والطقوس في كل العصور المتأخرة للمرجعية الدينية لعلماء الشيعة، إذ لا مجال لذكرها جميعها بل نكتفي ببعض الإشارات ذات الدلالة على موضوع البحث، فالمرجع الشيعي السيد عبد الأعلى السبزواري يشرعن العزاء بهذه الفتوى:» إنَّ من أهم وسائل النجاة وأوثق أسباب التوسل إقامة الشعائر الحسينية وتعظيمها وإدامتها فإنّها من شعائر الله جلّت عظمته[٣٧].

أما المرجع السيد محمد صادق الروحاني فهو يرى أبعد من أسلافه الفقهاء اذ يعتقد بالوجوب الكفائي لهذه الشعائر فيقول في فتواه: إقامة الشعائر بشتى أنحائها من أفضل القربات الإلهية والوسائل المطلوبة إلى الفوز العظيم بل هي من الواجبات الكفائية[٣٨].

ولو أجرينا قراءة سريعة لمجمل الخطاب الفقهي الذي أشاعته هذه الفتاوى الدينية وغيرها مما لم نذكره تلافياً للإطالة والخروج عن جوهر البحث،

لوجدنا أنّ العامل المشترك بين كل هذه الخطابات هو الاستحباب القريب إلى الوجوب لإقامة هذه الشعائر والطقوس وهذا ما يجعل المسلمين الشيعة في تواصل دائم لإقامة مثل هذه الشعائر التي تسربت إلى عقائدهم عن طريق هذه الفتاوى المتكئة على سير وأقوال وأحاديث الأئمة الإثني عشر. إنّ الحوزة العلمية تشجع على هذه الطقوس لأنها جزء من الثقافة والهوية الشيعية، لذلك يجمع فقهاء الشيعة على مساندة الشعائر الحسينية بسلسلة من الأحاديث والفتاوى التي تحث عامة الناس على القيام بممارستها.

وفيما يخص الرمزية في زيارة الأربعين، يرى علماء الاجتماع ومنهم «تيرنر» الذي أكد في تعريفه للرمز بأنه شيء متفق عليه بالإجماع العام على أنه يمثل أو يستدعي شيئاً آخر بشكل طبيعي من خلال امتلاك صفات مماثلة، او من خلال الارتباط في الواقع او الفكرة[٣٩].

أثمر عمل تيرنر في مجال الطقوس والشعائر عن تجاوز الاخفاقات العلمية للعلماء الذين سبقوا في هذا المجال كان الفعل الاساسي عند تيرنر هو التعامل مع الرموز الشعائرية والممارسات الشعائرية وبالتالي جمع ما بين المجرَّد والمجسَّد بمعنى آخر منحته فرصة ملاحظة الافعال وأن يرصد آراء الأفراد وتأويلاتهم ما يخص رموزهم الشعائرية ولهذا كشف التأثير المتبادل بين الرموز بوصفها أفكاراً والشعائر بوصفها ممارسات وهذا تم عن طريق تحليل مضمون التأثير بين الإثنين وتصنيف الرموز المدروسة الى مهيمنة ووسيلة لكي يحدد نوع التأثير ومضمونه[٤٠].

فالرمز في الذاكرة الشيعية مكانة مقدسة لشخص الامام ضمن بُعدين هما البعد الايماني ويمثل والتاريخي، وهذا ما يجعلنا نكتشف ان هناك نوعاً من التقابل قائمٌ بين التاريخ الشيعي والذاكرة الشيعية ينبع من خصوصية مفهوم رؤية العالم عند الجماعة الشيعية، وهو مفهوم اختزالي يدل على مجمل المعتقدات التي تشترك في الايمان بها جماعة من المتكلمين التي تتصل بالعالم، وبعلاقتهم به، لذلك تظهر دلالة هذا المفهوم (رؤية العالم) ارتباطه العضوي بالمعنى الذي تحمله الجماعة عن نفسها، والذي تتمثل دلالاته في طقوسها وشعائرها ومعتقداتها، وهذا ما يشير الى ان الأيقونة تنجز لأجل استخدامها في التعزيز التاريخي لخصوصية الجماعة الشيعية.

والمحافظة على وحدة الجماعة وتماسكها عن طريق التغذية السردية التي تدعم قوة الايديولوجيا التي تستمد خصائص بنائها الاجتماعي من الطقوس وبالذات من معنى طقوس التشابيه وليس التصاوير، ولهذا نجد أن سلوك أفراد الجماعة الشيعية ينحو منحيين، إذ نلاحظهم أنهم في الحياة اليومية يأخذ سلوكهم الطابع الفرداني، اما في تأدية الطقوس والشعائر فهم ذي سلوك جماعاتي، لاسيما ان التاريخ ينظر له كأسلوب يهتم بتنظيم الماضي من أجل عدم تحوله الى أثقال ترهق كواهل الانسان، وهنا نواجه التساؤل: مَنْ ينظّم تاريخ الجماعة الشيعية، الماضي ينظّم الحاضر أم الحاضر ينظّم الماضي؟ هذه الاشكالية التاريخية منعت الرمز من ان يتحول الى رمز ثقافي خالٍ من البعد الايديولوجي ويهتم بالجانب الفني والجمالي، لذلك فالجماعة الشيعية عندما تبصر الرمز

تتخطى موضوعها الفني انما هي تتحول ذهنياً الى الواقعة التاريخية المرتبطة بها.

وبهذا يتم تجاوز الذاكرة وتكريس النزعة التاريخية التي ترى ان التحليل التاريخي لمعتقدات البشر وافكارهم ونظمهم الاخلاقية واساليب معيشتهم هو الوسيلة الوحيدة لتفسير مثل هذه الظواهر لذلك لا يؤمن صاحب النزعة التاريخية بوجود حقائق حتمية او ضرورية غير تاريخية تتعلق بتركيب الحيوية الانسانية[٤١].

ان الاختلاف الاساسي بين مفهومي الذاكرة والتاريخ عند الجماعة الشيعية من خلال معنى الرمز هو ان الذاكرة تعتمد الانتقائية والاختيار مع التعديل. اما التاريخ فهو غائيٌ يمارس القصدية عن طريق المعاني التي تحملها الايديولوجيا، هذا الاختلاف جعل الرمزية الشيعية تركز في اغلب الاحيان على ايقونة الراية دون العلم مع تحويل (العلم) الى راية كون أن الراية مرتبطة بمعنى الجماعة اما العلم فهو مختص بالتعبير عن معنى الدولة، وهنا نلاحظ ان معاني الرمزية الشيعية تعاملت مع الذاكرة كجزء ضامر يستخدم فقط في تكوين الشكل الفني لصور الايقونة. اما التاريخ فلقد جعلته الإطار العام الذي تصاغ في اثناء سيرته معالم الطقوس والشعائر، وهذا التباين من قبل الرمزية الشيعية عزز الاختلاف ما بين الذاكرة الشيعية والتاريخ.

ويرتبط الرمز بطقوس العزاء أذ لا يمكن اكتمال فهم معنى الرمز بأشكاله المتنوعة دون فهم وتحليل الطقس الشيعي الذي ينقسم الى بعدين، الاول: تجسيدي مادي ملموس والذي يسمى (التشابيه) والبعد الثاني: صوري متخيل يطلق عليه تصاوير الائمة وتقع الايقونة في البعد الثاني عند مراجعة كلمة طقس تعني عادات وتقاليد مجتمع معين كما تعني كل انواع الاحتفالات التي تستدعي معتقدات خارج الإطار التجريبي[٤٢].

من هنا لا يمكن ملاحظة الطقس لذاته كونه غير خاضع للجانب التجريبي ولكن يمكننا استيعاب معاني الطقس من خلال رصد حركته والآثار التي تترتب عليه من استحضارات التهيؤ قبل القيام به وسلوكيات تظهر اثناء ممارسته وبعد الانتهاء منه، ومركز الفعل في تأدية الطقس هو الجسد إذ تؤدى به الكثير من الفعاليات وتمارس عليه العديد من النشاطات الطقوسية هذا التداخل ما بين الطقس والجسد جعل أغلب الطقوس، تنحو إلى جانب القرباني الذي يماثل فعل التضحية الأولى التي ينتج عنها الطقس وتكرست عليها ممارسته وعليه تكمن قوة الطقس في إثبات استمرارية الحدث التاريخي المعروف عند الجماعة الشيعية والمعلن من خلال طقوسها وشعائرها الدينية.

فالطقس يميل أساساً من خلال تكرار واستدامة القواعد التي تثبته الى تكريس ديمومة الحدث الاجتماعي او الاسطوري الذي أوجده، فهو استناداً الى ذلك إعادة خلق وتحسين لماض غامض غالباً، لكنه يأخذ معناه عند الذين يستخدمونه على انه فعل ديني[٤٣].

نلاحظ التالي ان الرموز الرئيسة للائمة عليهم السلام، إذ كانت رمزية الإمام علي تمثل رمزاً مهيمناً يمتلك حضوراً فاعلاً في نمط الثقافة الشيعية والذي منها

تبدأ صياغة السلوك الثقافي ونماذجه، ولكن بتأثير التحولات السياسية والاجتماعية التي مرت بها الجماعة الشيعية انتقلت ايقونة الامام علي من النمط الرمزي المهيمن الى النمط الوسيلي على العكس من رمز الامام الحسين عليه السلام الذي امتاز بثبات النمط الرمزي المهيمن، أما رمزية العباس عليه السلام فهي ثابتة على النمط الوسيلي كذلك رمزية الامام الرضا عليه السلام ذات نمط وسيلي، وانفردت رمزية الامام المهدي عجل الله فرجه عن باقي الرموز ما عدا رمزية الامام الحسين عليه السلام في حملها النمط الرمزي المهيمن.

محاولات تقويض الظاهرة

جاءت اولى محاولات تشويه مراسيم عاشوراء واستغلالها من قبل ممثلي السياسة البريطانية في العراق بهدف الوقوف أمام تيار الافكار الاشتراكية والمبادئ الشيوعية، ففي عام ١٩٤٩ كتب ضابط الاستخبارات البريطانية مستر راي في رسالة وجهها الى مدير الشرطة السرية في العراق قال فيها بأن الشيوعية لا تقتلع من جذورها بالطرق البوليسية وحدها وإنما بتطبيق اجراءات تصحيحية من بينها المعالجة الدينية، فالشيوعية معادية للدين اصلاً، بالرغم من ان الشيوعيين في العراق بذلوا جهدهم بعدم إثارة مسألة الدين، فان ذلك يفيد الحكومة، ومن اجل التقرب من الشيعة الذين يشكلون أكثرية السكان، وكذلك الاستفادة قدر الامكان من العزاء الحسيني[٤٤].

وكان واضحاً ان هدف الانجليز هو التدخل غير المباشر في مراسيم العزاء الحسيني وتمرير بعض الاهداف السياسية التي رسموها هذا من جانب، ومن جانب آخر كسب ود بعض القائمين على تلك المراسيم وكذلك البسطاء من الناس والظهور بمظهر المؤيد والداعم لهذه الشعائر والطقوس الدينية، خصوصاً بعد ان تكرر منعها من قبل عدد من الولاة العثمانيين الذين حكموا العراق، ومن ثم كسب تأييد وثقة الشيعة في الوقت نفسه، خلق خلافات وصراعات سياسية واجتماعية وطائفية ايضاً، وتحويل وجهة النضال الوطني المشترك لعموم فئات المجتمع باتجاه أهداف أُخرى.

ومن منظور سوسيولوجي، فإن أية ظاهرة اجتماعية كانت أم دينية، لا يمكن لها أن تستمر مالم تجد لها تربة خصبة تنمو فيها، وتوفر الظروف الاجتماعية والسياسية والنفسية التي تغذيها لتمكنها من البقاء والاستمرار أجيالاً متتابعة أيضاً.

وعلى مرّ الحقب الزمنية حاولت تيارات مناهضة للثورة الحسينية تشويه هذه الشعائر ومراسيمها، من خلال إثارة البلبلة حول بعض طقوس المواكب وبخاصة ممارسات التعذيب والجلد الذاتي، وقد تنبه العلماء المتنورون والمجتهدون الكبار والمصلحون وعدد من المثقفين الذين دعوا الى ضرورة تغيير وتطوير وتطهير ما دخل الى مراسيم العزاء الحسيني من ممارسات سلبية وتحويلها الى تظاهرات فكرية ومهرجانات حضارية متقدمة[٤٥].

ومهما تحصنت مراسيم العزاء الحسيني ضد محاولات التشويه والاستغلال فلابد لها من ان تقع فيها بعض التجاوزات من قبل افراد او جماعات،

مع ما تملكه من صمامات أمان داخلية تجعلها قادرة على التقليل من توظيفها واستغلالها بشكل يسئ الى اهدافها النبيلة.

النتائج:

١. تمثل زيارة الأربعين شعيرة مقدسة كونها تمثل رمزاً ذا أثر فاعل في مباني الثقافة الشيعية وإنها وسيلة تكميلية لإتمام الملامح العامة للطقس الشيعي.

٢. يدخل الرمز في سياق دعم الزخم المعنوي لمعنى الطقس بمعنى إنها تضيف تعزيزاً تاريخياً ونفسياً

٣. دفع فعل الطقس وشموليته الى إظهار قوة زيارة الأربعين كونها تمثل رمزاً مقدساً في التعبير عن إحدى معاني الثقافة الشيعية.

٤. ساهمت زيارة الأربعين في زيادة روح التماسك الاجتماعي بين افراد المجتمع العراقي بمختلف أطيافه، وانفتاحها نحو المجتمع الانساني الأكبر لأصالة رمزها المقدس.

٥. كان لزيارة الأربعين دور كبير في الانفتاح على الثقافات الاخرى وانتقالها من صفة المحلية الى صفة العالمية.

٦. اكتسبت زيارة الأربعين بعداً اقتصادياً نتيجة التكاتف الاجتماعي بين محبي آل البيت عليهم السلام في انها توفر كل الاحتياجات الغذائية والصحية واللوجستية التي يحتاجها الزائرون.

٧. اتسمت زيارة الأربعين بطابع اجتماعي وديني وسياسي واقتصادي وثقافي، وهذه الابعاد المختلفة لهذه الظاهرة تُعزى للتأييد الالهي كونها ثورة ضد الظلم والظالمين على مر العصور.

٨. خروج زيارة الأربعين من نطاق المحلية الى النطاق العالمي على المستوى الانساني يحررها من قيود الوصف بأنها عادات وتقاليد موروثة.

٩. اتساع حجم زيارة الأربعين بعد سقوط النظام البائد الذي حاربها بشتى السبل كونها ثورة ضد الطغيان وهذا الاتساع يشكل دافعاً لملايين الناس لتحمل عناء السفر والسير لمسافات شاسعة لأداء مناسك هذه الشعيرة كونها تحمل التأييد الالهي لاستمرارها قرون من الزمن وهذا خير مصداق على هذا التأييد.

١٠. يفسر هذا التزايد المضطرد في حجم الظاهرة كونها تعد أحد وسائل الخلاص في اليوم الآخر وطلب الشفاعة، إذ تتحول هذه المراسيم الى وسيلة للتقرب الى الائمة من اهل البيت عليهم السلام المقربين الى الله تعالى.

١١. حققت زيارة الأربعين كونها ظاهرة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، مبدأ التكافل الاجتماعي وتحقيق فائض في الايرادات المالية في خزينة الدولة حسب رأي المختصين في علم الاقتصاد.

المقترحات:

١. ضرورة تقليص بُعد المسافة بين موكب وآخر على طول الطريق الرابط بين النجف وكربلاء لتوفير خدمة اوسع للزائرين.

٢. التركيز من قبل المنابر الحسينية على تحصين مراسيم العزاء الحسيني وخصوصاً مراسيم زيارة الأربعين وحمايتها من محاولات التشويه والاستغلال والانحراف عن اهدافها السامية.

٣. نشر أعداد أكبر من مواكب التوعية الدينية

والارشادية للرجال والنساء والهدف من الزيارة على طول الطريق اثناء اداء الزيارة الى كربلاء.

٤. تفعيل دور وسائل الاعلام بالأهداف السامية لزيارة الأربعين كونها تمثل ثورة ضد الباطل على مر العصور.

٥. على المسؤولين العمل على نشر مخبرين سريين لمراقبة الحالات التي تستهدف الزوار او السلوكيات التي تسئ لمراسيم الزيارة وقدسيتها.

٦. العمل على بث ثقافة عالمية زيارة الأربعين وإنها غير مقتصرة على طائفة دون اخرى كون ثورة الامام الحسين عليه السلام جاءت لتصحيح الانحراف الذي اصاب الرسالة المحمدية والدين الاسلامي.

الهوامش

(١) الحيدري، ابراهيم، تراجيديا كربلاء: سوسيولوجيا الخطاب الشيعي، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٩، ص١١.

(٢) الحيدري، ابراهيم، المصدر السابق، ص٧.

(٣) زنجاني، عباس حميد، الفكر السياسي في الاسلام: المبادئ والاطر العامة، تعريب: ضياء الدين الخزرجي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ٢٠١٠، ص٣٨٦.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، دار العلم، بيروت، ١٩٧٨، ص١٧٢.

(٥) المصدر نفسه

(٦) المصدر نفسه، ص١٧٣

(٧) محسن، حميد جاعد، أساسيات البحث المنهجي، ج١، شركة الحضارة للطباعة والنشر، بغداد، ٢٠٠٤، ص٧٦.

(٨) حافظ، ناهدة عبد الكريم، مناهج البحث العلمي، بغداد، ٢٠٠٧، ص٢٠.

(٩) الفوال، صلاح مصطفى، منهجية العلوم الاجتماعية، دار الهنا للطباعة والنشر، القاهرة،١٩٨٢، ص٥٨.

(١٠) محجوب، محمد عبده، وحيدر ابراهيم، ومحمد عباس ابراهيم، مجدي حميدة، دراسات سوسيوانثروبولوجية، بلا جهة وسنة طبع، ص١٦٣.

(١١) الجوهري، عبد الهادي، قاموس علم الاجتماع، مكتبة نهضة الشرق، مصر، ١٩٨٣، ص ٢٢٥.

(١٢) عبد الباقي، زيدان، قواعد البحث الاجتماعي، مطبعة السعادة، القاهرة، ط٣، ١٩٨٠، ص٤٤١.

(١٣) حافظ، ناهدة عبدالكريم، مصدر سابق، ص٣٤.

(١٤) الحيدري، ابراهيم، تراجيديا كربلاء: سوسيولوجيا الخطاب الشيعي، مصدر سابق، ص٣٢٢.

(١٥) المصدر نفسه، ص٣٢٣.

(١٦) الخوارزمي، مقتل الحسين، ج ٢، مكتبة المفيد، قم، ايران، ص ٤٠.

(١٧) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، دار صادر، بيروت، لبنان، ط ٥ ص ٤٨٩.

(١٨) الاعرجي، محمد رضا، أحسن الجزاء في إقامة العزاء على سيد الشهداء، مؤسسة التاريخ العربي، ٢٠٠٩، ص ١٧٣.

(١٩) الجويني، محمد صالح، تاريخ المأتم الحسيني، مجلة نصوص معاصرة، عدد ٩، السنة الثالثة، قم، ايران، ٢٠٠٧، ص ٧٨.

(٢٠) المصدر نفسه.

(٢١) الحيدري، مصدر سابق، ص٣٢٥.

(٢٢)المصدر نفسه، ص ٩٠.

(٢٣)ابن قتيبة، الامامة والسياسية، دار النهضة، ط ٢، القاهرة ١٩٧٢، ج ٢، ص ١٣٠.

(٢٤)روبير بندكتي، الشعائر بين الدين والسياسة، دار مصر المحروسة، القاهرة، مصر، ٢٠٠٥، ص٩.

(٢٥)الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٢، دار الكتاب الاسلامي، قم، ايران، ٢٠٠٥ ص ١١٨.

(٢٦)روبير بندكتي، مصدر سابق، ص ٩٨.

(٢٧)القمي، الشيخ مهدي حسينيان، الشرعية الدينية للمأتم الحسيني، مجلة نصوص معاصرة، العدد/ ٨، السنة الثانية، ٢٠٠٧، قم، ايران، ص ١٦٦س.

(٢٨)العزاوي، حيدر، ومضات حسينية، مؤسسة عاشوراء، قم، ايران،٢٠٠١، ص ١٢٧

(٢٩)المدرسي، هادي، الشهيد والثورة، مطبعة اهل البيت، قم، ايران، ١٩٩٨، ص ٢٦٥.

(٣٠)الجويني، محمد صالح، مصدر سابق، ص ٨٨.

(٣١)الاعرجي، محمد رضا، مصدر سابق، ص ٣٦٠.

(٣٢)المصدر نفسه.

(٣٣)المصدر نفسه.

(٣٤)المصدر نفسه، ص ٣٦٢.

(٣٥)المصدر نفسه، ص ٣٦٦.

(٣٦)المصدر نفسه.

(٣٧)المصدر نفسه، ص ٣٦٨.

(٣٨)المصدر نفسه.

(٣٩)الأسود، السيد حافظ، الانثروبولوجيا الرمزية: دراسة نقدية مقارنة للاتجاهات الحديثة في فهم الثقافة، منشأة المعارف، الاسكندرية، ٢٠٠٢، ص١٠٢.

(٤٠)مجموعة مؤلفين، موسوعة النظرية الثقافية، مصدر سابق، ص٨٨.

(٤١)المصدر نفسه، ص١٠٢.

(٤٢)طوالبة، نور الدين، الدين والطقوس والتغيرات، منشورات عويدات، بيروت وباريس، ١٩٨٨، ص٣٤.

(٤٣)ابن منظور، لسان العرب، ج١٦، بيروت، دار احياء التراث العربي، ١٩٩٨، ص ٤١٣.

(٤٤)الحيدري، مصدر سابق، ص٤٣٣.

(٤٥)المصدر نفسه، ص٤٤٥.